السيلة الحارثية بين الماضي والحاضر والمستقبل

عبد الله قبها

مدخل

ما أن ينتهي المعلم معاناة البحث عن الوظيفة، إلا ويدخل مرحلة إعداد متعبة فيها الكثير من الدورات الإرشادية والتمهيدية والتحضيرية. وما أن ينهي هذا المشوار الطويل، حتى يجد نفسه عالقاً في حبائل ومتاهات من المناهج التقليدية ذات المصادر المعرفية المتكررة، التي لا تتيح له كمعلم أن يحرر نفسه من الإملاءات والأعمال الكتابية على النحو الذي يجعله مبدعاً ومغيراً، حيث يكون همه الأكبر تدريب يده على الكتابة لأن مشواره طويل، ولا يوجد وقت أصلاً لأن يفكر ويستخدم إستراتيجيات ملائمة تتماشى حتى مع التوجيهات التربوية الصادرة عن الوزارة.

ويبقى الحال كما هو عليه حتى يدرك المعلم ما المطلوب منه، وتكون البداية الحقيقية عندما يقف المعلم أمام تحدٍّ ذاتي؛ أي أمام سؤال مطروح عليه لكن من نفسه ذاتها، هنا يكون الفرق كبيراً، وتكون الإجابة هي الجواب. فعندما يكون المعلم هو من يسأل نفسه، حينها يعرف ما له وما عليه، أما إن كان يُسأل من قبل آخرين فلا يعرف إلا ما عليه.

في بعض ورش العمل التربوية التي شاركت فيها ضمن تعاوني مع مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، كنت أتزود بجرعات من الأمل عندما أشاهد معلمين يتحدثون عن تجاربهم الشخصية في التعليم عبر مشروع، عبر تلك الصيغة التي يكون فيها المعلم والطالب شريكين في العملية التعلمية، شريكين يتحاوران ويكتشفان ويسألان عن المعلومة ويسائلانها، عندها تمنيت أن يأتي اليوم الذي لا أكون فيه مستمعاً فقط لتجارب الآخرين، بل أكون من يتحدث عن مشروعه أمام الجميع بشعور الراضي عن نفسه، وعن واجبه الثقافي والأخلاقي تجاه طلبتنا الذين هم أمانة في أعناقنا. بدأت أفكر أن أشارك طلابي في مشروع نبدأه معاً ليكون الحلم حقيقة.

في أول خطوة للمشروع كانت زيارة معرض «ستظل في الزيتون خضرته» في قرية عابود، بعد التنسيق مع مركز القطان الذين سارعوا في دعم هذه الخطوة. عندما وصلنا مدرسة عابود بعد السفر الطويل، كانت أعين طلابي تنظر

وترقب المكان بانتظار مشاهدة شيء مختلف. وبعد الترحيب بنا من قبل إدارة المدرسة وإدارة المشروع ومركز القطان، توجهنا نحو المعرض فذهلنا جميعاً من هذا المعرض المتقن والمتكامل بكل جوانبه، وبدأت أقرأ في أعين طلابي علامات الغيرة المحفزة وعند توقيعهم كزائرين ومشاركين في المعرض على لوحة وضعت على الحائط، بحيث قام بعض منهم بالتعليق على المعرض بعبارات رائعة، هنا أدركت أن لحظة البداية لمشروعنا قد بدأت.

فكرة المشروع ومأزقه

الخطوة الثانية للمشروع عقد اجتماع مع الإدارة المدرسية وطلاب الصفين السادس والخامس لإطلاعهم على فكرة المشروع، وهنا كانت المشاركة لجميع الطلبة دون أن يستثنى أحد، ما دام هو راغب في المشاركة، حتى الطلبة ذوو التحصيل المتدني كانوا من أوائل المشاركين في المشروع. ومن التفكير الجماعي بدأنا، حيث طرحت عليهم لنفكر مع بعضنا البعض إذا أردنا أن يكون لنا مشروع نعمل فيه ونتعلم من خلاله فكيف ترونه؟ وما الموضوع الذي تقترحونه؟ ما الأهداف التي تتخيلونها له؟ هنا بدأ الطلاب الحديث، ولكنه كان حديثاً طازجاً لا يشبه حديثهم الصفي، بل ظهروا كرجال كبار، رجال تلبستهم الحكمة مع المعاناة. فجأة بدأوا يتكلمون كقادة كبار، نريد أن نطور بلدتنا السيلة، نريد أن نعمل شيئاً للمستقبل؟ نريد للسيلة أن تكون أكبر من العائلات فيها، وأخيراً بدأ طالب يردد نريد سيلة دون مشاكل ... .

في ضوء هذا الحوار، علقت في ذهني جملة (نريد سيلة دون مشاكل) كيف نخلق سيلة دون مشاكل؟ وما هي المشاكل التي يقصدها الطلاب؟ وبربط جملة سيلة بلا مشاكل بجملة السيلة التي أكبر من عائلاتها، بدأت تتضح لي أهمية المشروع، مهمته ومهمتي كمعلم، عندها فكرت أن تكون السيلة محور المشروع، ولكي لا نثير حساسيات عائلية أو ماضوية أو أيديولوجية، قررنا معاً أن يكون محور المشروع هو السيلة في الماضي والحاضر والمستقبل، وكأننا تواطأنا على أن نقرأ التاريخ أولاً، لكي نفهم الحاضر، وأننا يجب أن نحدد مشكلة الحاضر لكي نؤسس لمستقبل مختلف.

لكني في الحوار مع الباحث مالك الريماوي في مركز القطان اتفقنا على أن لا نؤجل التأسيس المستقبلي ليكون نهاية المشروع، بل إن غاية خلق سيلة (بلا عائلات وبلا مشاكل) ستكون مهمة المشروع الرئيسة، فالطلاب عبر المشروع سينخرطون في جمع ماضي السيلة، وفي رسم واقعها الحاضر بالكلمة والصورة والرسم والخريطة والمقابلات والحوار، وبالعمل الفردي والثنائي والجماعي، سنبني كل ذلك بشكل يخترق التأطيرات العائلية، ويسائل التصورات السابقة، ويعيد التأسيس للحوارات الداخلية، دون تصورات مسبقة، بالعكس سيتم وضع هذه التصورات على محكات تساهم في تفكيكها، وبالتالي فإن اخراط الطلاب في مشروع

جمع تاريخ السيلة سيكون بالنسبة لنا مشروعاً في إعادة إنتاج تصورات الحاضر، ما سيبني أناساً مختلفين يؤسسون لمستقبل مختلف، هكذا بنى المشروع غايته، وبدأ في خلق ثقافته عبر خلق أناسه الجدد وتصوراته الجديدة.

ومن التصورات السابقة انبثقت فكرة المجموعة، العمل ضمن المجموعات من أجل خلق (إستراتيجية جديدة) ليس العمل في مجموعات فقط، بل جعل المجموعة تعمل كإستراتيجية تغيير ومهمة اختراق، كانت الفكرة الرئيسة من عمل المجموعات هو تذويب العائلية المكرسة في البلدة داخل المجموعات التي تلقي بثقلها على كاهل الطلبة الذين بعفويتهم رغبوا في أن يحاربوها ويكشفوا عن أوجاعها من خلال تكوين كل مجموعة من الطلبة تضم جميع العائلات الموجودة في البلدة، وعلى كل مجموعة أن تأخذ حارة وتعمل فيها سواء بجمع القصص أو بالمقابلات، حينها تأخذ كل مجموعة على عاتقها القيام بالمهمات المطلوبة منها.

صورة من أجل صورة أخرى

كانت أول مهمة لبناء المجموعات هي التقاط صور شخصية جماعية لهم، صورة لأفراد المجموعة مع بعضهم البعض، صور وهم مجتمعون في الصف أو في ركن ما في المدرسة، صور وهم يصورون منظراً في القرية، أو يقابلون شخصاً، أو يمرون في شارع أو زقاق، صور تم إلصاقها على الحائط، وتم التعليق عليها من قبل المجموعات الأخرى من حيث الحدث أو المكان أو اللحظة، أو النظرة ...، ومن ثم تبادل الزيارات بين أفراد المجموعات لتعزيز فكرة أبناء البلد الواحد والحياد عن العائلية القاتلة، وكان من المهم جداً بناء المجموعات بمشاهد حقيقية واقعية، لأن الواقع مرير ومرير جداً، من يصدق أن بعض الطلبة لم يدخلوا حارات أخرى غير حاراتهم، من يصدق أن منهم لم يكن يجرؤ على المرور من زقاق حارة أخرى، من يصدق...؟!

ما أجملها من صور! التقطها الطلبة وهم يقفون جنباً إلى جنب دون أن يلتفتوا يميناً أو شمالاً، ما أجملها من صور! في زقاق ضيق وسع حلم كل هؤلاء الطلبة والناس يتفرجون ويضحكون ويسألون، ومن ثم يبعدون لأن من يطرق الباب يسمع الجواب، فلا جواب للطلبة إلا أننا مصممون على تغيير بلدتنا.

الاسم بطاقة تعلم

قدم الطلبة اقتراحات عديدة بخصوص اسم المشروع، قد استمر ذلك منذ البدء قبل الشروع في جمع المعلومات والحوادث والقصص وأثناء ذلك، حيث دارت الأفكار والاقتراحات حول تاريخ البلدة ومشاكلها، وفي النهاية تمت صياغة اسم المشروع بالتوافق مع الجميع وهو «بلدة السيلة الحارثية عبر الزمن: واقع وخيال» «نستكشف ماضي البلدة،

ونكشف أوجاعها، ونبني مستقبلها».

كل معرفة جديدة يحضرها الطلبة يلصقونها على حائط كبير على شكل دوائر بيانية تحت ما يتوافق من مراحل المشروع، حيث تم التخطيط للمشروع ليغطي ماضي القرية أولاً، ثم حاضرها، لينتقل للمستقبل، تلك الثلاثية التي قصد منها بناء الذاكرة، ثم إعادة فهم الحاضر والانطلاق للمستقبل.

وقد تم تصور المحور الأول وهو «الماضي»؛ أي استكشاف ماضي البلدة بطريقتين الأولى: «قال لي أجدادي» عن عيون الماء ومواسم الحصاد والعلاقات الاجتماعية. والطريقة الثانية: «حدث في هذا المكان» ليجدد ارتباط الأهل بالمكان الذي يجمعهم بدلالاته وأحداثه، وابتكار الطلبة معاني جديدة للأماكن، وهنا بدأ الطلاب يتفحصون ما جمعوه من معلومات وحكايات وقصص عن عيون الماء ومواقعها وأسمائها، كما بدأوا في البحث عن أسماء من كبار السن متعاونين مراعين العمر، والصحة العقلية، وتقبل الموضوع، وإمكانية تحديد مواعيد المقابلة معهم، ولكن كان لا بد من إيجاد بدائل غير ساعة الوقت لتحديد الزمن المناسب للمقابلة، مثل وقت الآذان ووقت الظل ... .

المقابلات الشفوية: أسرار واكتشافات

مع أول مقابلة تم تحديدها من قبل الطلاب مع الحاجة فاطمة والحاجة رسمية انتابني شعور بالقلق، لا أعرف أهو الشعور بتحمل المسؤولية أم شعور معلم يخوض تجربة جديدة في واقع بعيد جداً عن التجارب.

وفي الطريق لإجراء المقابلة أتذكر تماماً السؤال الذي كنت مراراً وتكراراً أوجهه للطلاب. أنتم متأكدون أنكم حصلتم على الموافقة لإجراء المقابلة؟ والجميع يقول لي: نعم يا أستاذ لا تقلق نحن معك. وعند الدخول تكلمت الحاجة عن أيام زمان أيام البيادر والمعاصر والعسليات، تكلمت ولا تريد أن تتوقف عن الكلام لأنها عادت بذاكرتها لأيام كان لها طعم خاص على الرغم من المعاناة والشقاء. ومما جعل جو المقابلة مريحاً، هو جلوس الأهل بجانب الحاجة، حيث كانوا يذكرونها بمشاهد من الماضي قالتها لهم، وقالت أيضاً بحسرة: يوم ما ذهبت مع زوج ابنتي إلى أحد المستعمرات اليهودية لشراء الحليب، نظرت إلى باب البركس وإذا بي أرى معلقاً على الحائط بابوراً، وعود حراث قديماً، ومذراة

للقمح، وشاعوباً، وصاجاً، وجاروشة، ومسراداً وغرباالاً، وجميع الأدوات التراثية التي كنا نستخدمها في حياتنا حتى ميزان الكب معلق، حينها بدأت أصرخ وأقول شوفو يا عرب، بستحقوا يعلقوهن ويعتزوا فيهن ويحتفظوا بتراث أجدادنا اللي إحنا أبعدنا عنه.

الطلاب بعد ما سمعوا ما قالته الحاجة، غمرهم حب السؤال عن الجديد القديم لأنه أصبح اليوم من المصطلحات التي بحاجة إلى توضيح، كلمات الحاجة جعلت الطلبة يسألون كيف نتعرف على هذه الأشياء، وهذا قادهم للبحث عنها وإيجاد طريقة لإحضارها والتعرف عليها، وبالتالي التعرف على الأشخاص الذين ما زالوا يتمسكون بها، لأنها تعني لهم الكثير، وكل أداة تحكي قصصاً ووقائع في أزمنة وأماكن مختلفة. الطلاب بدأوا يسألون ويبحثون عن أدوات كتب بها أجدادهم تاريخهم وحياتهم، وبدأوا يسألون أجدادهم وأقرباءهم عنها، ومع كل أداة وجدوها كانت تروى قصص وتسجل أحداث ومناسبات. ساعد الطلبة في ذلك الأستاذ عبد السلام طحاينة الذي كان من مشجعي المشروع، والذي جعل من بيته معرضاً للأدوات التراثية، ولم يبخل علينا بتوجيهنا وتقديم ما يساعدنا في المشروع.

وفي مقابلة الحاجة رسمية كان اثنان من الطلبة تربطهم علاقة القرابة مع الحاجة، وأثناء دخولنا البيت صافح الطالبين الحاجة

وامرأة فسألتهم من تكون هذه المرأة، فأجابوني هذه والدتنا، وهي معلمة، وطلبت إذناً من مدرستها لكي تشاهدنا أثناء المقابلة. فما أعظم هذه اللحظات التي ينتظر فيها الأهل ليروا أبناءهم يعيدون جزءاً من تاريخ أبائهم وأجدادهم.

بعد كل مقابلة يحرر الطلبة ما كتبوه، ويعيدون صياغته، وفي اليوم التالي أثناء الفسحة المدرسية نعقد اجتماعاً للمحاورة والمناقشة فيما يتعلق بالمقابلات، وفي كل اجتماع كنت أنظر إلى ما يعطينا الأمل والاستمرارية للمشروع، وفي كل مرة الطلبة هم مشاعل الأمل والعمل، أثناء الحديث رفع الطالب أسعد سمير يده فقلت له: ما بك؟ فأجاب: يا أستاذ المشروع سيطر علينا. فقلت له لا أفهمك، فقال: الليلة حلمت أننا أنجزنا المشروع والناس صفقوا لنا. حينها حمدت الله أن المشروع موجود في قلوب الطلبة، وليس في كتبهم الثقيلة.

وفي كل مقابلة يزداد شغف الطلبة للاستماع إلى أجدادهم ليروا كيف كان الناس يتجمعون مع بعضهم البعض، تربطهم المحبة والتعاون، ويسهرون على البيادر؛ بيادر الخير التي كانت تزرع بالقمح والذرة والسمسم، ويطربون على صوت البابور الذي كان يصيح بالخير. حتى العصافير كانت تنعم بهذا الخير، تعيش وتبيض في حلات القمح، وهذا كناية عن كثرة الخيرات وكيف كانت الساحة الرئيسة (وهي الآن مكان صيدلية مكة) توحدهم وتجعل المصاب والفرح واحد، فما أجمل من لحظات الفرح والناس يوقدون النار في الساحة، يتجمع حولها كل الأحباب والمهنئين، وتبدأ فيها الأيام الملاح وأيام الأوف والميجانا.

في إحدى المقابلات تفاجأ الطالب زين الدين، عندما دار الحديث بين الطلبة وعبد الصمد عن أيام كان فيها الناس يداً واحدة، يقدمون العطاء والخير دون مقابل، أن جدته كانت مشرفة الأعراس، فلا يتم عرس إلا بحضورها، وعند سماع الطالب زين الدين ما قاله عبد الصمد قال: والله إنك عظيمة وكبيرة يا ستي، وأنا ما عمري اسمعت عن هذا الكلام، مع العلم إنني أراها كل يوم، بل كل لحظة. الآن عرفت كم كانت رائعة هذه الكلمات، ما خرجت لولا تحرير الطلبة من الاستسلام أمام المعرفة إلى مساءلتها. الطالب نفسه أثناء مقابلة الشيخ صادق على إحدى عيون الماء (عين تعنك)، ذكر له الشيخ أن الناس كانوا يأتون إلى عين تعنك ليعبئوا الماء، والنساء تأتي وتضع حمل الماء على رؤوسها وتمشي مسافات بعيدة، فهذا الكلام أوقف الطالب مرة أخرى قائلاً: الله أكبر، كل هذه المسافة جدتي كانت تقطعها وهي تحمل الماء على رأسها، الله ما أعظمك يا جدتي!

ما الذي حدث بعد أن سمع الطلاب ورأوا كل ذلك؟ كبرت بلدتهم في عيونهم، وكبر أهلهم كلما كبر مشروعهم ورأوا أنفسهم فيه، تغيرت نظرتهم لغيرهم، وأصبحوا يرون أجمل ما في بلدهم ليضعوه على مجسم لبلدتهم المستقبلية التي أحبوها قبل أن تولد، وتصبح أمراً واقعياً، فقرروا أن يضعوا خلاصة جهدهم في معرض سموه «معرض الحلم» بدأوه بعمل خريطة ومجسم لبلدة السيلة قديماً، وضعوا عليه عيون الماء وأماكن ذات دلالات مهمة مثل الساحة الرئيسية، وأول مدرسة والمخبز القديم والمعصرة القديمة، ومن ثم عمل مجسم آخر لبلدة السيلة وضعوا عليه أحلامهم المستقبلية، فبنوها على طريقتهم، فصمموا الشوارع الواسعة، والحدائق العامة، والبنايات العالية، والملاعب الواسعة، والمختبرات العلمية، والجامعات المتخصصة، فكان الطلبة مهندسين ومصممين وخبراء في التخصصات كافة. ما أجملهم وهم يتناقشون حول وضع إشارات المرور، فهذا يقول: تصلح هنا، وتلك هناك، والآخر لا من الأفضل وضعها هنالك.

لم يرضَ الطلبة أن يبقى عملهم بعيداً عن أهلهم فارتأوا أن يكون لمشروعهم ومعرضهم نصيب كبير من اليوم المفتوح، لا بل جعلوه فاتحته، فقسم الطلبة أنفسهم ووزعوا مسؤولياتهم، فمنهم في الاستقبال، ومنهم في الضيافة، ومنهم دليل المعرض، وآخرون مرشدون. عندما قدم الأهالي وشاهدوا أبناءهم هم من يستقبلونهم ويطلعونهم على مشروعهم ومن أوجد فكرته وعمل على تصميمه تفاجأ الجميع، وكان هذا واضحاً من الكلمات التي خطها الزائرون على لوحة وضعت على مدخل المعرض، و لم تقتصر زيارة المعرض على الأهالي فقط، بل مشاركة التربية والتعليم، وبعض المدارس.

بعد إعجاب الأهالي بما قدمه أولادهم تمنى الكثيرون منهم أن يكون أولادهم من ضمن المشروع، فكانت هذه خطوة مهمة في استمرارية المشروع بعد توفير قاعدة شعبية من المجتمع المحلي لدعمه، وتقديم كل ما يمكن أن يساعد أبناءهم في إنجاز مهماتهم، لأن المشروع أصبح مشروع أبنائهم، وبخاصة بعد ما نال المشروع إعجاب التربية والتعليم في جنين، بعد ما تلقيت اتصالاً هاتفياً من النائب الفني لمدير التربية والتعليم في جنين أخبرني فيه عن تقديرهم الكبير للمشروع وأهميته كإنجاز حقيقي على مستوى المديرية، وتم تعيين مشرف تربوي متابع للمشروع، وكانت هذه مؤشرات حقيقية لأهمية المشروع ونوعيته، ودوافع تعمل على استمراريته حتى إنجازه على المستويات كافة. ولكن الفرحة لم تطل و لم تدم وكأن الحقيقة أصبحت حلماً حتى الحلم أصبح ممنوعاً بعد ما عاش الجميع لحظات رائعة عبر تجربة جديدة وفريدة، مزج الحلم مع الحقيقة والماضي مع الحاضر والحاضر مع المستقبل، كان الطلبة فيها هم المعلمون والمرشدون والمهندسون، وهم من كانوا سنداً ومشجعاً لمعلمهم، جاءت السنة الدراسية الجديدة، وفي العادة يتفاءل الجميع بالخير، لكنها جاءت وليتها لم تجئ، جاءت وتحمل خبر نقلي فنياً دون مقدمات إلى مدرسة أخرى بعيدة كل البعد عن طلابي، ومشروعنا الذي حلمنا فيه جميعا، ويبقى الحلم حبيس أدراج مكتب التربية، ربما بانتظار قرار فني آخر.

مدرسة الكرامة الأساسية الثانية – جنين